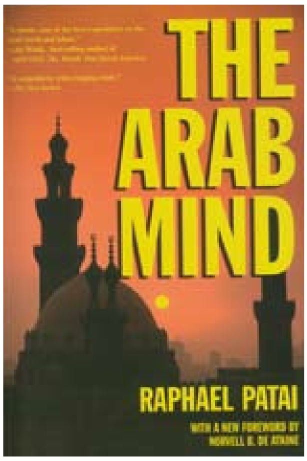

العقل العربي 74

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الخلاصة

إن التعقيد هو السمة التي تبدو على صورة العقل العربي بعد المناقشة التي وردت في الفصول السابقة. فالطفل، ذكرا كان أم أنثى، يُصب في أحد قالبي الجنسين ليكون إحدى الشخصيتين المتفاوتتين بشدة، وذلك عبر العمليات المختلفة التي تجرى من أجل تثقيف الطفل بثقافة المجتمع، والتي تبدأ من الولادة، بل إن التحضير لها يسبق الولادة من خلال الآمال المتحمسة للأم والأب والعائلة جميعها بأن يكون المولود القادم ذكرا. إن الوعي المجتمعي القائم على أولوية الذكر وثانوية الأنثى مطبوع في عقل الطفل، ذكرا كان أم أنثى، ويتعزز بمرور السنين حتى يصبح عند البلوغ جزءا لا يتجزأ من الوعي الذاتي. إن الصورة النمطية للرجل والمرأة، كما هي في عقل كل من الجنسين، تشكل مكونا أساسيا من الحياة العربية ذا تأثيرا كبيرا على النظام الاجتماعي بعامة، والعلاقات الشخصية بخاصة.

إن الطفولة المبكرة هي أيضا المرحلة التي تتشكل فيها الجوانب الأخرى المشكلة للشخصية العربية النمطية. ومن أهم هذه الجوانب الميل إلى الاعتماد على الماضي أو على سابقة متينة أو تقليد باركته السنون، وعدم الميل إلى بذل الجهود لتغيير الواقع الراهن، وعدم السعي إلى الادخار بهدف إنجاز المشاريع المؤجلة، والميل إلى اللجوء إلى التهديدات اللفظية كتعبير عن الاستياء دون أن يتبع ذلك فعل ما.

وتضيف عملية اكتساب اللغة بعدا خاصا للشخصية العربية. فاللغة العربية، والتي تستخدم باعتناء كبير حتى من قبل الأغلبية الأمية، أصبحت أكثر بكثير من مجرد وسيلة للتواصل الشفوي: فقد تطورت إلى آلة فنية يمكن لتوظيفها أن يوفر رضى عاطفيا عميقا للمتكلم، وأثرا عاطفيا بنفس الشدة للسامع. وفي هذه المكانة العاطفية المتنوعة

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الخلاصة

الخاصة التي تتبوؤها اللغة عند العربي، وما توفره من الرضى الحسي الذي يحصل عليه مما فيها من صوت وإيقاع ونغم، يستطيع الباحث أن يجد الجذور النفسية لميل العربي إلى الخطابية والمبالغة والتشديد والتكرار والاستعاضة بالأقوال عن الأفعال. ومن جهة أخرى يبدو أن عجز اللغة العربية عن تحديد الزمن بدقة يرتبط بما يلاحظ دائما في الشخصية العربية من إهمال لعنصر الوقت وغياب حس الزمن.

لقد أدت عملية محو الأمية، وهي فكرة ألهمها الغرب، إلى إحداث أول شرخ في البنية النفسية للعقل العربي واللغة العربية. فمع انتشار التعليم الابتدائي، ومعه المعرفة بالعربية الفصحى، أدرك العرب شيئا فشيئا أن اللغة التي كانوا يتكلمونها ما هي إلا نسخة عامية من العربية الفصحى النقية والرائعة، وأن ما كانوا يفعلونه لم يكن غير ثرثرة دون أهمية؛ وتضاعفت ازدواجية اللغة هذه بوجود لغة أوروبية تنوعت بحسب هوية القوة الاستعمارية المسيطرة التي أدخلتها إلى المجتمع والنظام التعليمي. وعلى وتيرة متماثلة، أدت هذه الازدواجية اللغوية بين اللغة العربية واللغات الأوروبية إلى دفع العرب الذين اكتسبوا معرفة عملية باللغات الأوروبية إلى الاعتراف أمام أنفسهم أن العربية، سواء أكانت عامية أم فصحى، هي لغة ذات منزلة أدنى وتعجز عن التعبير عن الكثير من الأفكار والأشياء التي أصبحت مهمة لهم نتيجة تلقيهم التعليم الفرنسي أو الانكليزي.

إن الازدواجية اللغوية العربية-الفرنسية أو العربية-الانكليزية تعد أهم المظاهر الواضحة للهامشية التي ابتلعت الطبقة المتعلمة في معظم الدول العربية في بداية القرن العشرين. وثمة مظاهر أخرى للهامشية نجدها في كافة مجالات الحياة: المسكن، والأثاث، والملبس، والطعام، والبنى الاجتماعية، وأنماط السلوك، والنتاج الفكري، وحتى العواطف. ونتيجة لذلك ظهر لدى العديد من أفراد الطبقة المثقفة في الدول العربية موقف متذبذب إزاء الثقافتين: الثقافة العربية التقليدية التي رغبوا بأن ينفصلوا عنها ولكنها ظلت ملتصقة بهم، والثقافة الغربية الحديثة التي رغبوا بأن يندمجوا فيها ولكنهم عجزوا عن تحقيق ذلك بشكل كامل. وهذا التذبذب، بدوره، قد يؤدي إلى الازدواج.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الخلاصة

كما لاحظ الباحثون العرب الذين درسوا الشخصية العربية، أو إلى شخصية منقسمة، وهي، بالطبع، مفهوم نفسي غربي. وبمناسبة الحديث عن البنية الاجتماعية، فإن اكتساب لغة وثقافة غربية نتج عنه فجوة ثقافية في معظم الدول العربية تفصل بين النخبة المتأثرة بالغرب (المستغربة) والجماهير المتعلقة بالتقاليد. وما أعقب ذلك من إعاقة للتواصل الثقافي بين الطبقتين العليا والسفلى من المجتمع العربي أدى إلى خلق شعور بالتهميش والإقصاء بين الطرفين، ونشوء وضع ملتبس عاشت فيه الطبقتان الغريبتان عن بعضهما البعض جنبا إلى جنب في الدولة نفسها، بل وفي المدينة نفسها.

ولتلك الفجوة تعبير شديد الوضوح في الحقل السياسي، فباستثناء بعض الحالات (في شبه الجزيرة العربية بالأخص)، يتصف القادة السياسيون العرب بأنهم متأثرون بالتغريب، وجميعهم يلم بالانكليزية أو الفرنسية على نحو أفضل من العربية أحيانا، وكلهم يميلون إلى قياس المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في دولهم بالمقاييس الغربية دون أي من تقاليدهم العريقة التي عفا عليها الزمن في نظرهم. وسواء أكانوا ملوكا أم رؤساء، موافقين للغرب أم معارضين له أم حياديين في ذلك، استبداديين أم ديكتاتوريين أم ديمقراطيين، على رأس السلطة أم قادة ثانويين، فجميع القادة العرب تقريبا متأثرون بالغرب على نحو عميق، وهذا التغريب يجعلهم عاجزين عن النظر بغير العيون الغربية إلى مصالح مواطنيهم من المسلمين العرب التقليديين الذين لم يتعرضوا للتغريب، والذين يشكلون أغلبية السكان في كل الدول العربية. ومن هنا تكون مهمة القادة العرب، في نظرهم، على جانبين: إحضار الابتكارات الغربية إلى شعوبهم، وإعادة تعليمهم لينظروا إلى هذه الابتكارات على أنها تحسن أحوالهم ويكونوا عازمين على القبول بها.

إذا ما حولنا دائرة اهتمامنا إلى المكونات التقليدية للشخصية العربية، فسنجد أنها تصنف في مجموعتين اثنتين: المكون البدوي الجاهلي الذي لا يزال حيا في الثقافة الشعبية للأغلبية التقليدية، والمكون الإسلامي الذي يغطي المكون السابق ويندمج معه أحيانا بشكل غير قابل للملاحظة. ويتصف المكون البدوي في الشخصية العربية بعدة

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الخلاصة

صفات مميزة كأهمية القرابة، والولاء، والشجاعة، والمروءة، والنفور من العمل اليدوي، والتشديد على أهمية الشرف والسمعة (الوجه) والكبرياء. وتظهر علائم هذا المكون في عدة ممارسات مثل الغارات والثارات وحسن الضيافة (ومن ضمنه إجارة الدخيل) والكرم. وثمة عقدة خاصة شديدة الأهمية تتصف بها تقاليد البدو، وهي عفة المرأة (شرفها الجنسي) التي تفسر أحكامها بشكل متشدد في معظم الحالات، والتي تعتمد عليها سمعة قبيلة المرأة من جهة الأب بأكملها.

أما المكون الإسلامي للشخصية العربية فيظهر بالطريقة الخاصة التي يتخلل بها الإسلام جميع جوانب الحياة من خلال دوره كمعيار أساسي لكل شيء: كما في تأثيره النفسي بما يقدمه من قوة صمود، ونظامه الاعتقادي الخاص، والاعتدال الديني، والمعنى الغائي أو القصدي الذي يعطيه للحياة. كما يطبع في الذهن الإيمان بالقضاء والقدر الذي يخلق استعدادا خاصا في النفس ويشكل مصدرا لنقاط قوة وضعف في الوقت نفسه، فما دامت أحوال المسلم جيدة نوعا ما تراه يحجم عن القيام بأي جهد في سبيل تحسينها. أما إذا دهمته مصيبة فهي ثواب ليس له حد. وذلك يعطي الناس القدرة على التحمل ورباطة الجأش في وجه أقوى ضربات القدر من خلال الاعتقاد بأن كل ما يحدث للإنسان هو بمشيئة الرب؛ وسواء أكان الحظ سيئا أم جيدا فإنه يقود إلى قصر النظر والإسراف الطائش بحجة أن «الله هو الرازق».

بنظرة عامة إلى المكونات الإسلامية والجاهلية في الشخصية العربية نلاحظ اعتناق الأخلاق العربية للمكونين كليهما، فتكون أصولها من الجاهلية، وصفاتها من القرآن والإسلام. أما العنصر الأخلاقي الذي يطلق عليه «أخلاق الفضيلة» فيتكون، كما يتبين من الملاحظة الدقيقة، من مكونات جاهلية في معظمها، ويتمحور حول واجب صون السمعة (الوجه) وتوأمه: تجنب العار. وإذا ما حللنا الأعراف الأخلاقية المركّز عليها فسنجد أنها بينما تندرج في تصنيفات مثل الشجاعة وحسن الضيافة والكرم والشرف فإنها تدور جميعها حول قضية مركزية واحدة: الكبرياء. وفضلا عن ذلك، بما أن كبرياء العربي يعتمد أساسا،

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الخلاصة

وفق الرؤية العربية، على احترام الآخرين له، فإن النظام الأخلاقي العربي مؤسس كليا على ما يقرره الآخرون أو يتوجه إليهم دائما. وما يهم عند هذا النمط من الرؤية الأخلاقية ليس الأحاسيس والنوايا والقيم الأخلاقية الذاتية الأخرى، وإنما أنماط السلوك الخارجي الذي يشكل وحده أساس تقييم الآخرين لشخصية الفرد. ومن هنا يكون العار، وليس الإحساس بالذنب، هو العامل الأساسي في تحديد السلوك.

وبينما يتصف السلوك العربي بأنه ذو طابع تكيفي يفرض على الإنسان أن يتصرف على نحو توافق عليه البيئة الاجتماعية، فإن البيئة العربية توفر متنفسا يمكن للعواطف المكبوتة من خلاله، أحيانا على الأقل، أن تخرج للعلن؛ وهذا المتنفس المقبول اجتماعيا يتمثل في الانفعالات ونوبات الغضب والعدوانية والعنف التي يتغاضى عنها المجتمع ويصفح عنها مباشرة. إن هذا النمط من السلوك يميل إلى أن يتفاوت من حد إلى آخر ليكون مستقطبا بين حالتين متناقضتين من ضبط النفس وانفجار الهياج العدواني. وعندما تكون هذه الاختلاجات في طور العمل يصبح مزاج العربي مهتاجا وعدوانيا ويفقد عقله، وعندما تزول الاختلاجات يعقبها ندم حقيقي يرافقه ارتباك وعدم فهم كلي لما فعل أو كيف وصل به الحال ليتصرف كذلك.

وقد وصل بنا البحث إلى اكتشاف صلة ما بين هذا النمط المفكك من السلوك وبين النقص النسبي في الترابط بين المستويات الوظيفية الثلاثة في الوجود البشري: الأفكار، الأقوال، الأفعال. حيث تتصف عملية التفكير لدى العربي بأنها أكثر ذاتية، أي استقلال عن الواقع، مقارنة بمثيلتها لدى الغربي. وكذلك الأمر بالنسبة لعملية تشكيل الألفاظ التي لا تتأثر بالواقع بالدرجة نفسها في الغرب. ويميل التفكير العربي إلى أن يتواجد في المستوى المثالي بعيدا عن المعايير الواقعية التي لا ترحم. وكذلك يميل الخطاب العربي إلى التعبير عن الأفكار المثالية، وتمثيل ما هو مرغوب أو مأمول وكأنه حقيقة ماثلة للعيان، دون التمسك بحدود الواقع. ومن هنا يكون لدى العرب تعارض أكبر نسبيا بين الأفكار والأقوال

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الخلاصة

من جهة، والأفعال من جهة أخرى. فعلى مستوى الأفعال يكون المرء محاطا بالواقع، أما الأفكار والأقوال فتحاول التمسك باستقلال نسبي عن الواقع.

ثمة ملاحظة أخرى تسجل لدى مراقبة عمل العقل العربي في ما يخص الفنون والموسيقى والأدب. ففي مجال الفنون البصرية ركز العرب على الزخرفة والتزيين مما يفسر على أنه ميل إلى التمسك بالبنى المثالية وما يصاحب ذلك من إهمال، أو حتى ازدراء، للواقع البصري الذي تجسده الأنماط الطبيعية من الفنون البصرية. أما في الموسيقى فنلاحظ الميل ذاته، ولكن ليس بذلك الوضوح الشديد لأن الموسيقى الغربية تتسم أيضا بعدم الارتباط بالواقع. وعلى الرغم من أن العلامات الموسيقية من ابتكار العقل البشري في الثقافتين كليهما، فإن الموسيقى تختلف في ما بينهما من ناحية المادة النغمية والبنية العامة. فكل من الزخرفة والموسيقى العربية تتسم بتكرار مطول لعناصر صغيرة متماثلة، قد يكون في ما بينها تفاوت ضئيل أو لا يكون. وهذه السمة ذاتها نجدها في الهندسة العربية كما في الأدب العربي. ومع ذلك فإن جميع هذه النواحي (المشهد العام للتعبير الفني والموسيقي والأدبي) يمر بتغير سريع ويتجه إلى تبني الأنماط الغربية.

إن التوتر القائم بين الوحدة والصراع، والذي تتسم به العلاقات الاجتماعية القائمة ضمن الدول العربية وفي ما بينها، يمكن اعتباره مثالا آخر على التفاوت ما بين المثالي والحقيقي في العقل العربي. فالوحدة العربية كانت لوقت طويل أمرا مثاليا اجتذب مشاعر الناس وألسنة القادة السياسيين، لكن الواقع دائما ما يسخر من هذا الأمر المثالي ويحرض العرب، جماعات ودولا، على بعضهم البعض. وإن لم تتخذ الصراعات دائما طابع حروب دموية، فإنها قد تكون شجارا غير مؤذ يشارك فيه الجميع بأسلحة لا تتعدى العصي والحجارة، أو قد لا يحتوي على أي عنف جسدي البتة، مقتصرا على الإهانات والإساءات اللفظية. لكن مستويات القتال جميعها تشهد بلا ريب على أن العربي ميال إلى الصراع، وأن شقيقه العربي، دون الأجانب، هو عدوه «المفضل». ولقد تعالت أصوات العرب أكثر فأكثر في العصر

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الخلاصة

الراهن منتقدة نزعة الصراعات الداخلية، داعية إلى تحقيق هدف الوحدة العربية المثالي القديم، وهو هدف لا يزال إلى اليوم تكتنفه الأوهام.

ليس أمام مجتمع مزقته الصراعات، كما هو حال المجتمع العربي، إلا أن يطور آلية لتسوية الصراعات واستعادة السلام بين الفرقاء المتحاربين مهما تعددت مشاربهم. ومن هنا كان تقليد التوسط هو الشكل الأمتن للجهود العاملة من أجل التوصل إلى السلام، وبقي هذا التقليد يعتمد عليه العرب على نطاق واسع في الصراعات التي اندلعت بينهم في ستينيات القرن العشرين. وما يحدث من تكرار لا يلين في استخدام التوسط مرة تلو أخرى في الصراع نفسه إنما هو شاهد صريح على الاعتماد الوثيق للعرب على هذه الطريقة التقليدية لتسوية الصراعات، حتى وإن كان الصراع من نمط جديد يشبه الحروب الغربية الحديثة. وثمة مثال آخر على تطبيق الأساليب التقليدية لحل مشاكل العالم العربي الحديث، وهو ما أدعوه «داء المؤتمرات». فالنمط الأساسي للمؤتمرات العربية التي يعاد انعقادها مرارا وتكرارا ما هو إلا المجلس الذي كان يعقد في خيمة الضيوف التابعة لشيخ القبيلة البدوية. والكثير من خصائص المؤتمرات العربية الحديثة يمكن توضيحها بالاستعانة بشرح بنية المجلس القبلي والمقارنة مع إجراءاته التي لا تكون رسمية أبدا.

لقد أضيف مكون شديد الخصوصية إلى العقل العربي عندما قدم علماء الغرب للمثقفين العرب الدراما التاريخية لعظمة العصور الوسطى العربية وما تلاها من قرون الركود. ولم يلبث النقاد العرب طويلا حتى تجاوزوا زملائهم الغربيين في لوم العرب على تخلفهم، وانحطاطهم الثقافي، وتحجرهم. وكان لهجوم هذه المزاعم السوداوية أثر إيجابي دوما: فقد كان هدفها، بل عملها، منصبا على إيقاظ العقل العربي من سباته الذي استمر من العصور الوسطى، واقترن هذا الجهد الرغبة في استعادة الأمجاد القديمة وتبوؤ موقع مواز للغرب في طليعة الجهد الثقافي البشري. وكانت القومية في نظر الكثير الدواء الناجع لعلل العرب جميعها، وساهمت بشكل كبير في تحرير الأرض العربية من المحيط إلى الخليج.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الخلاصة

في الوقت نفسه، اتسمت القومية العربية بمسحة قوية من عداء الغرب. وعلى الرغم من أنه لا شك في أن الغرب كان المحرك الرئيسي لولادة الصحوة العربية من خلال تقديم المعايير الصحية والتعليم العام والخدمات العامة الأخرى للعالم العربي، فإنه اتخذ في نظر العرب موقع العفريت الشرير، ذلك العدو المكروه وكبش الفداء الجاهز الذي يلام على كل المشكلات التي تقلق العرب. كما نتج عن المواجهة مع الغرب عقدة نقص مقلقة في العقل العربي زادت لوحدها من صعوبة تحطيم قيود الركود. إن التحدي العربي الماثل أمام العقل العربي هو أن يتوقف عن قياس الإنجازات العربية بالمقاييس الغربية، وأن يعمل لإعادة تشكيل العالم العربي بالاعتماد على إمكاناته الخاصة دون الاستهانة بأي منها.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©